في ندب الممارسات النقدية

• د. عبد النبي اصطيف

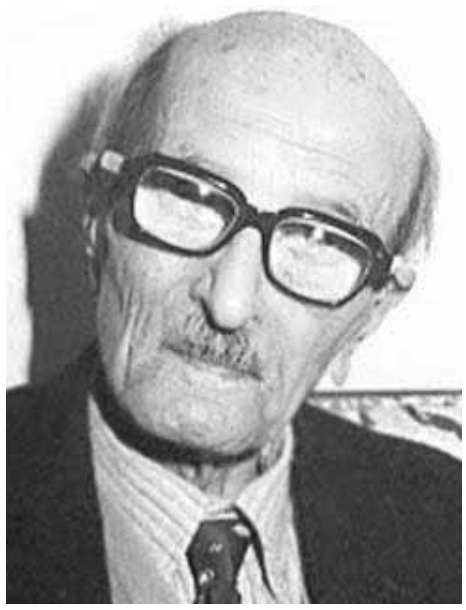
ميخائيل نعيمة

تتعالى هذه الأيام أصوات كثيرة تندب الحالة المزرية للحركة النقدية في القطر العربي السوري. ولا يقتصر هذا الندب على النقد الصحفي الذي يملأ الصفحات «النقدية» في الصحف اليومية، وصحيفة الاتحاد الأسبوعية، والذي لا يخضع إلى أية معايير عقلانية قبل دفعه إلى القارئ، بل يشمل كذلك النقد الأكاديمي الذي لا يبدو لأصحاب هذه الأصوات غير صدى تابع للآخر، يردد ما يتناهى إلى سمع منتجيه من أفكار صادرة عن آداب وثقافات أجنبية، ويسعى إلى تطبيقه على النصوص الأدبية العربية.

والواقع أن هذه الأصوات على بعض من صواب عندما يتصل الأمر بـ «محسوبيات النشر»، وشبكات تعويم الأسماء والأعمال الأدبية، المحفوزة بغايات وأهداف ومقاصد فوق أدبية Extra-Literary.

وهي محقة كذلك عند حديثها عن بعض الأعمال الأكاديمية التي تكشف عما يعانيه النقد الأكاديمي من انتشار ظاهرة النسخ والمسخ للنتاج النقدي الغربي من جهة، وللمنجَز النقدي العربي الحديث الصادر عن علاقة عضوية حميمة مع النصوص الأدبية العربية القديمة والحديثة من جهة أخرى.

غير أن التعميم يشكل «عقب أخيل» في ندب هذه الأصوات، والذي يبدو أنه ناجم عن خوفها من أن تقدم أمثلة ملموسة عما تشير إليه، وتكتفي بأن تدور حول الحمى دون أن ترتع فيه، نظراً لما يسود الممارسات النقدية العربية الحديثة من تماهٍ غير مقبول بين عمل المنقود، وبين شخصه، وهو ما حذّر منه منذ أكثر من قرن ميخائيل نعيمة في كتاب الغربال، وحذره منه نقاد كثيرون آخرون مذكرين بأن النقد ينبغي أن ينصرف إلى العمل الأدبي والنقدي، وليس إلى صاحبه. ذلك أن هذا العمل هو ما يرتقي بصاحبه أو يخفضه، والأديب والناقد بما يملكان إنتاجه من عمل أدبي او عمل نقدي، وعلينا عند مقاربتنا لعمليهما أن نقصر اهتمامنا على هذا العمل، من دون المساس بشخص صاحبه.

> ما الذي تقدمه لتشجيع الإنتاج النقدي القائم على التفكير المنظم في الأدب وقضاياه ومسائله ومختلف شؤونه؟

ولكن هذه الأصوات لا تكتفي بالتعميم بل تتجاهل حقيقة أن النقد الأدبي مؤسسة اجتماعية، وأن منتجه عضو في مجتمع، ويمارس نشاطه ضمن مؤسساته التربوية، والجامعية، والثقافية، والإعلامية؛ ومعنى هذا أن هذه المؤسسات تتحمل القسط الأكبر من مسؤولية انحدار الممارسة النقدية في القطر إلى هذا الدرك المشين.

ولعل السؤال الذي يطرح نفسه بقوة في هذا المقام هو ما الذي تفعله هذه المؤسسات للنهوض بممارسات النقد الأدبي؟ وما الذي تقدمه لتشجيع الإنتاج النقدي القائم على التفكير المنظم في الأدب وقضاياه ومسائله ومختلف شؤونه؟

وثمة أخيراً ملاحظة مهمة تتصل بأصحاب هذه الأصوات وهي أنها تكتفي بالندب والشكوى والرثاء، من دون أن تفكر في تقديم الأنموذج البديل الذي نفتقده. إنها تشير إلى ما لا ترضى عنه من نقد، وتغفل عن حقيقة أن عليها أن تخطو في نقدها خطوة تتجاوز هذه الإشارة إلى تحديد ما يرضيها في الممارسات النقدية، وإلى تقديم نماذج تُحتذى، يستطيع القارئ أن يقارن بينها وبين ما ينشر، ويتبين سمين النقد من غثه، ومن ثَم يستطيع أن يعطي لكل ذي حق حقه من التقدير والاهتمام والإقبال على ما ينشره.

والحقيقة أن الحديث عن الممارسات النقدية الراهنة في القطر العربي السوري حديث ذو شجون، ومجال القول فيه متسع فسيح، ولعله يحتاج إلى وقفة أطول، بل ربما كان بحاجة إلى ندوة، أو ورشة عمل، أو عدد خاص من المجلات المعنية بالنقد أو حتى مؤتمر يخرج بتشخيص صحيح لعلّله، ويرسم طرقاً سليمة تساعده على التخلص منها، بتقديم الدواء الناجع لأدواء قد تبدو مزمنة في ظاهرها، ولكنها قابلة للشفاء إذا ما صحت النية وتعززت بالعزيمة الصادقة واستقام العمل، فقل اعملوا.

اليرموك ...بلا سند وغاب من تحدث باسم الشعب ؟

• محمد أبو عادل

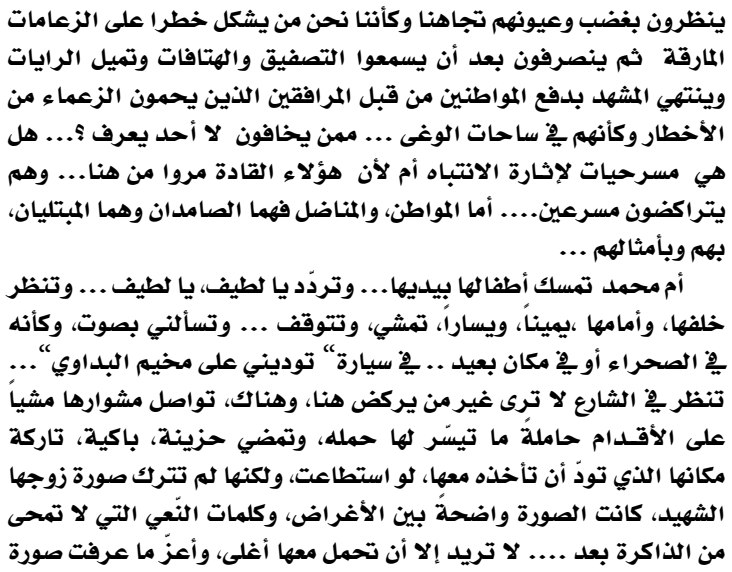

لو قدر لنا أن نعيد المشهد النضالي للمخيم لرأينا صور الصمود والمقاومة والعنفوان والعزة والكرامة ... ولكننا اليوم نرى المخيم وقد تخلت عنه من أسمت نفسها بالزعامات وممثلي الشعب وأعضاء المجالس الوطنية ولم يبق فيه غير الناس الطيبين الأوفياء والشهداء الذين كانوا يحلمون يوما أن يأخذ محررو فلسطين عظام شهداء الثورة ليدفنوها في فلسطين ليرتاحوا هناك بعد هذا الغياب والشقاء والمعاناة ...

هناك بالقرب من جامع الوسيم كان يجلس وقد هده التعب وقست عليه الأيام لم أتذكر اسمه لكنني تذكرت وجهه يوم كان يقاتل في الجنوب ويدافع بكل قوة واقتدار عن الشعب والمقاومة ... هو الآن بلا سند أو حتى ولد .. وحده يحاكي زمانا ليس له ... ويضع يده على رأسه ويقول يا رفيق أين من أشبعونا خطباً ووعوداً ومواقف ... لماذا لا يأتون إلى هنا ويسألون ماذا جرى للمخيم وكيف ضاع واختفى المخيم .... كنت أسأل نفسي هؤلاء المرافقين كانوا ينظرون بغضب وعيونهم تجاهنا وكأننا نحن من يشكل خطرا على الزعامات المارقة ثم ينصرفون بعد أن يسمعوا التصفيق والهتافات وتميل الرايات وينتهي المشهد بدفع المواطنين من قبل المرافقين الذين يحمون الزعماء من الأخطار وكأنهم في ساحات الوغى ... ممن يخافون لا أحد يعرف ؟... هل هي مسرحيات لإثارة الانتباه أم لأن هؤلاء القادة مروا من هنا... وهم يتراكضون مسرعين.... أما المواطن، والمناضل فهما الصامدان وهما المبتليان، بهم وبأمثالهم ...

> اليوم نرى المخيم وقد تخلت عنه من أسمت نفسها بالزعامات وممثلي الشعب وأعضاء المجالس الوطنية

أم محمد تمسك أطفالها بيديها... وتردّد يا لطيف، يا لطيف ... وتنظر خلفها، وأمامها ،يميناً، ويساراً، تمشي، وتتوقف ... وتسألني بصوت، وكأنه في الصحراء أو في مكان بعيد .. في سيارة" تودّيني على مخيم البداوي"... تنظر في الشارع لا ترى غير من يركض هنا، وهناك، تواصل مشوارها مشياً على الأقدام حاملةً ما تيسّر لها حمله، وتمضي حزينة، باكية، تاركة مكانها الذي تودّ أن تأخذه معها، لو استطاعت، ولكنها لم تترك صورة زوجها الشهيد، كانت الصورة واضحةً بين الأغراض، وكلمات النّعي التي لا تمحى من الذاكرة بعد .... لا تريد إلا أن تحمل معها أغلى، وأعزّ ما عرفت صورة للشهيد، وبعض من بقايا ذكريات مضت، وما زالت تنبض بالحياة ....لعلها تحاكي ما مضى، وتسأله أيّ حال وصلنا اليه ؟...